التراث اليوناني من المحلية إلى العالمية عبر اللغة العربية

أ. أحمد بناسي
جامعة الجزائر

منذ البداية، أود أن أشير هنا إلى أن هذا التدخل المتواضع لا يتناول موضوعا بالنقد والتحليل وإنما هو سرد لوقائع أبرزتها من عمق التاريخ للبرهنة على أن التراث اليوناني لم يولد تام التكوين، وإنه لم يكتسب الطابع العالمي إلا عبر قرون عديدة، وأن هذه العالمية لم يكتسبها إلا بفضل انتشار الإسلام، وبلغة القرآن الكريم.

إنه لمن الحقائق الأولية، والثابتة أن الفلسفة لم تنبع من أرض اليونان بالذات، وإنما نبعت من مستعمراتها، أي جنوب اليونان على يد فلاسفة عديدين، كان همهم الوحيد، هو الإجابة على سؤال ملح : ما هو مصدر الكون، وما هو جوهر وجوده ؟ فمنهم من قال : إن الماء هو أصل الكون، ومنهم من قال : العدد، إلخ. الملاحظ أن هؤلاء الفلاسفة، اتجهوا كلهم إلى الطبيعة،

يستنطقونها، ولذلك سموا بالفلاسفة الطبيعيين. ولقد دامت هذه الحقبة نحو قرن ونصف أي 600 سنة قبل ميلاد المسيح إلى غاية 450 ق م. ونتيجة لظروف وصراعات سياسية، واجتماعية لا داعي لذكرها الآن، انتقلت الفلسفة إلى أثينا بالذات فلقد ظهر السفسطائيون فجعلوا شعارهم، الإنسان مقياس الحقيقة، وأن الحقائق نسبية، وليست مطلقة، فمادام الفلاسفة السابقون لم يتفقوا على مصدر الكون، فالحقائق إذن نسبية، وبعد السفسطائيين جاء سقراط، ثم أفلاطون ثم أرسطو، وهذه المرحلة تمثل أزهى عصور الفلسفة اليونانية وإن تأثيرها على الفكر البشري ما يزال إلى الآن.

كان أفلاطون (427 – 347 ق. م) يرى أن هناك حقائق مطلقة، ولها وجود واقعي وهي المثل، وأن العالم ينقسم على قسمين : عالم محسوس وعالم معقول، وأن النفس البشرية كانت تتأمل هذه المثل (الحقائق المطلقة) وعندما وقع لها نوع من التراخي، اتصلت بالجسم فتكدر صفوها، وللتخلص من أدران الجسد، لابد أن تعود إلى تأمل الحقائق، وذلك عن طريق ما يسميه أفلاطون بالجدل التصاعدي. إن أفلاطون كان يرى أن العالم عبارة عن مادة تسودها الفوضى والله هو الذي نظمها، وأضفى عليها هذا النظام البديع الذي نراه اليوم. ومن ثم فإن الله صانع وليس خالقا. على أن شيئا بقي خالدا في حياة أفلاطون هو أنه أسس أكاديمية علمية سنة 387 ق م، ودامت إلى سنة 529 م أي عاشت أزيد من تسعة قرون[1] وكان الغرض من إنشائها هو أن : "تثقف الطلاب وتزودهم بحب المعرفة والحكمة لتجعل منهم فلاسفة ورجال السياسة"[2]. وكان من نتائج هذه المدرسة أن تخرج منها أرسطو (384 – 322 ق. م). فلقد كان في البداية وفيا لتعاليم أستاذه، لكن فيما بعد أصبحت له مواقف تختلف عنه تماما، فهو

يرى أن الحقائق ليس لها وجود واقعي، وإنما هي عملية تجريدية يقوم بها الإنسان عندما يستخلص الصفة العمومية بين طائفة من الأشياء، فمفهوم الإنسان، ليس له وجود واقعي، وإنما هو موجود في ذهننا لا غير ؛ ثم إن أرسطو يرى أن العالم أزلي، وإذا كان الزمن مرتبطا بالحركة، فإن حركة العالم قديمة أيضا ؛ ثم إن هناك ما يسميه أرسطو بالصورة والهيولي، فالصورة مرتبطة بالهيولة فعندما يفنى الجسم، تفنى معه النفس، إذن فالنفس ليست خالدة، ثم إن الله لا يعلم الجزئيات لأن العلم بها نقصان في حق الله.

من أثينا إلى الإسكندرية

كان أحد الملوك المقدونيين وهو الملك فليبيس (383– 336ق م) يطمح إلى الاستيلاء على بلاد اليونان، وفعلا عندما تسلم مقاليد الحكم سنة 360 ق م كان مطلعا على الحالة السياسية والاجتماعية في بلاد اليونان المتدهورة، وكان هو نفسه قائدا عسكريا ممتازا وهكذا اجتاحت جيوشه بلاد اليونان واستولى عليها سنة 338 ق م وذلك في معركة شهيرة "خيرونيا"، وكان ينوي أن يحرر كل المستعمرات اليونانية التي كانت في قبضة الفرس، ولكنه اغتيل سنة 336 ق م ولم يتجاوز عمره 47 سنة، فخلفه ابنه الإسكندر (233– 653 ق م)، والواقع أن الإسكندر هذا كان أبوه قد استدعى أرسطو ليشرف على تعليمه، وليلقنه العلم والمعرفة، ولقد لازم أرسطو 3 سنوات، ولقد علمه كما تقول الكتب التاريخية الشعر، والتاريخ، والجغرافيا، وسائر معارف العصر في ذلك الوقت، ولقد كان أرسطو يطمح على أن يجعل منه رجلا يجمع بين العلم والقيادة السياسية، خاصة أنه أتيحت له الفرصة لأن يحكم مقدونيا نيابة عن أبيه، بل اشترك معه في بعض المعارك الحربية، وعندما اغتيل أبوه تسلم مقاليد الحكم وهو في سن

العشرين. ولقد تابع فتوحات أبيه في الشرق وفي آسيا، واستولى على مصر سنة 332 ق م ثم أسس مدينة الإسكندرية في السنة نفسها، لكنه أصيب بمرض عضال، فتوفي سنة 323 ق م، ولقد خلفه في الحكم بطليموس[3] لأول والثاني وهنا تبدأ الحياة العلمية فصلا جديدا، ذلك إن الإسكندرية أصبحت من الناحية الجغرافية امتدادا لليونان، فلقد انتقل إليها اليونانيون حاملين معهم ثقافتهم وفلسفتهم، وتراثهم لأن بطليموس الأول الذي كان يلقب بـ "سو ستر" كان محبا للعلم، فلقد بنى مكتبة عظيمة ثم إن خلفه سار على منواله، فكان يشتري الكتب كيفما كانت هذه الكتب حتى أن بعض هؤلاء الملوك عرضوا على كل من يقيم في الإسكندرية من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة لما يملك من كتب. كما إن العلم قد ازدهر ازدهارا عظيما في هذه الفترة، فلقد برز أثناء الحكم المقدوني اليوناني إقليدس (270– 231 ق م) وكذلك أرخميدس؛ ولقد دام حكم هؤلاء الملوك الذين خلفوا الإسكندر ثلاثة قرون، غير أن هذا الحكم يمكن أن نقول عنه أنه كان يتميز بأمور ثلاثة :

1. إن اليونانيين بدخولهم تحت مظلة المقدونيين فقدوا عزتهم وكرامتهم، لذلك عزفوا عن التفكير الفلسفي المنظم، فملوك البطالمة لم يكونوا من مناصري الفلسفة[4].

2. إن الجالية اليهودية، واليونانية، هي التي كانت تسيطر على الحكم والنفوذ والجاه.

3. إن هذا الازدهار العلمي لم تكن له امتدادات خارج الإسكندرية وأسوارها، لذلك لم يكن له تأثير على الفكر البشري في ذلك العهد، ولقد دامت هذه الفترة كما قلت سابقا من سنة 306 ق م إلى سنة 20 ق م وهذا التاريخ

أعني 20 ق م كان بداية في تغيير خريطة العالم تغييرا جذريا إذ ظهرت عناصر جديدة، فلقد استولى الرومان على اليونان والإسكندرية ثم ظهور النزعة اليهودية على يد "فليون"، ثم ظهرت النزعة الغنوصية، والمسيحية، كل هذه العناصر امتزجت ولم تعد هناك فلسفة يونانية خالصة.

1. النزعة اليهودية على يد فليون (25 ق م- 50 م)

إن هذا الفيلسوف أراد التوفيق بين الفلسفة والتوراة، لقد كان يرى أن الله موجود، ولكننا لا نعرف كنهه أو حقيقته، وبما أن الله روح لا يتصل بالمادة، فلقد خلق العالم، غير أن أفلوطين (203- 269 م) أعطى هذا الاتجاه محتواه الفلسفي، وهو بدون شك متأثر بفلسفة أفلاطون، غير أنه وقف أمام مشكلة استعصت على أفلاطون، وهي أن الله واحد فكيف صدرت عنه هذه المخلوقات المتعددة، لذلك التجأ إلى فكرة الفيض، فالعالم فاض عن الله سبحانه و تعالى كما يفيض النور من الشمس، ثم أن هناك ما يسميه أفلوطين بالنفس الكلية، ومن النفوس الكلية صدرت عنها النفوس الجزئية، وبوسع هذه النفوس الجزئية أن تصعد عن طريق المجاهدة إلى النفس الكلية، وهذا هو التصوف. ثم إن المعرفة ليست دائما معرفة منطقية فيمكن اكتسابها مباشرة من النفس الكلية وهذا هو الإشراق.

لقد حرصت على ذكر هذه الجوانب الفلسفية لأن الفلاسفة المسلمين تأثروا بها أشد التأثر، كالفارابي وابن سينا كما سيأتي، وطبعا فإن أفلوطين تتلمذ عليه كثيرون، الإسكندر الإفرودوسي، وفرفوريوس الصوري صاحب كتاب ايساغوجي في المنطق.

2. الغنوصية : تعريفها

يعرفها كرم يوسف في كتابه تاريخ الفلسفة بأنها : "شيعة دينية، فلسفية، متعددة الصور، ويدل اسمها على مبدأها وغايتها، إن اللفظ اليوناني"غنوصي" يعني معرفة. فمبدؤها، أن العرفان الحق ليس العلم بواسطة المعاني المجردة، والاستدلال كالفلسفة، وإنما هو العرفان الحدسي، التجريبي الحاصل عن اتحاد العارفي بالمعروف، وأما غايتها فهي الوصول إلى عرفان الله على هذا النحو ولذلك فالغنوصية صوفية"[5].

أما استيلاء الرومان على أثينا فكان على يد"سولا" سنة 86 ق م ثم استكمل الفتح "يوليوس قيصر" الذي استولى على مصر والإسكندرية بالذات سنة 48 ق م، ولقد بقيت الإسكندرية ترزح تحت الحكم الاستعماري الروماني إلى غاية الفتح الإسلامي سنة 640 م على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه.

اتصال أثينا وروما بالمسيحية

تذكر كتب التاريخ أنه لم يكد يمضي قرنان على ظهور المسيحية حتى انتشرت في ربوع الرومان واليونان وكان ذلك على يد "القديس يوليوس"، لكن الأباطرة الرومان قاوموها مقاومة عنيفة، وحاولوا القضاء عليها في مهدها وخاصة عندما "صادر الإمبراطور دقلديانوس جميع الكنائس سنة 303 م وإنه لم يكتف بهذا، بل امتد ذلك إلى الكتب الدينية وإعدام بعض المواطنين لأنهم كانوا عصاة خارجين عن قوانين الدولة"[6]. وفي سنة 324 م اصبح "قسطنطين" حاكما فجعل الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة، وفي سنة 529 م أمر"جوستينيان" بإغلاق مدارس الفلسفة و خاصة الأكاديمية الأفلاطونية، و بعد هذا الغلق استمرت الإسكندرية في تأدية وظيفتها التعليمية[7].

هذه هي قصة الفلسفة وهي تنتقل من جنوب أثينا إلى أثينا بالذات، ثم إلى الإسكندرية، وروما، وهي في كل هذا لم تكن فلسفة يونانية خالصة، فلقد امتزجت بجميع العناصر الفكرية التي أشرت إليها سابقا، غير أنه ينبغي أن أشير هنا إلى شيء هام وهو أن التراث اليوناني بقي محصورا في الإسكندرية ولم يمتد إشعاعه خارجها، يقول ويلز جورج : "هكذا حدث أن شعلة التقدم الفكري لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة الذين جعلهم بطليموس الأول، والثاني، كان مثلها كمثل نور في مصباح معتم، يحجب النور دون العالم كافة، وقد تكون الشعلة في الداخل وهاجة، ولكنها مع ذلك مستورة لا تراها الأنظار. أما بقية أصقاع العالم، فإنها صارت على طرائقها القديمة غير دارية أنها قد بذرت بذرة العلم والمعرفة التي ستحدث فيه انقلابا في يوم من الأيام، وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الديني وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها"[8]. ويقول عن يقول على الرومان بعد استيلائهم على أثينا ومراكزها الفكرية. "إن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تنتج في مدى أربعة قرون شيئا يمكن موازنته بالنشاط العقلي الجريء الذي بذلته مدينة أثينا الصغيرة أثناء قرن عظمتها، ولم تصب أثينا في ظلال الصولجان الروماني إلا إلى الانحطاط والتدهور واضمحل عالم الإسكندرية، بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل في تلك الأيام[9] وهكذا كان العالم يعيش في الظلام الدامس، ولا يعرف قيمة تلك الكتب التي كانت مكدسة في بعض المكاتب حتى ظهر الإسلام فأخذ تلك البذرة فرعاها حتى أتت ثمارها اليانعة. نعم لقد كان على العرب بعد بزوغ الإسلام وانتشاره أن يضطلعوا بهذه الرسالة التحضيرية وأن يحققوا أمورا أربعة.

1. الاطلاع على ما أنتجته قرائح الأمم في مختلف العلوم، والمعارف، ولا يكون ذلك إلا عن طريق اللغة العربية أعني تعريبها.

2. هضم وتمثل تلك الثقافة واستيعابها وتجاوزها إلى مرحلة الإبداع والابتكار.

3. تنقية ذلك التراث وشرحه وتبويبه وتنقيحه.

4. إيصاله إلى العالم.

قبل تحليل هذه المهام الأربع التي كان على العرب الاضطلاع بها لابد أن نتساءل ما هي الدوافع إلى تعريب تلك الكنوز والذخائر ؟ يرى بعض المؤرخين إن ذلك يعود إلى الخليفة العباسي المأمون الذي رأى في المنام أنه كان يحاور أرسطو يسأله عن بعض القضايا الفلسفية، وهذا ما دفعه إلى الحرص على ترجمة الكتب اليونانية، أنا شخصيا لا أستطيع أن أنفي أمر هذا المنام، لكن الشيء المحقق، أن التعريب بدأ قبل المأمون، بل كانت بدايته في عصر الأمويين كما سيأتي، ثم إن الدكتور سعيد البوطي يرى أن المسلمين انبهروا بالفلسفة اليونانية لما احتوته من مصطلحات، فتعلقوا بها، لكنني أعتقد أن القرآن الكريم احتوى على مصطلحات تفوق المصطلحات اليونانية، فالهدف الرئيسي الذي دفع المسلمين إلى تعريب الكتب اليونانية هو أن القرآن احتوى على آيات تتضمن كثيرا من الأسئلة، وطرح بعض المواضيع التي لم يعرفها العرب من قبل، ومن أمثلة ذلك، و هي كثيرة، قول الله عز وجل **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾**[10] **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾**[11] **﴿إن ربكم الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾**[12] هذه الآيات

وأمثالها كانت بمثابة أسئلة كونية شوقت العرب إلى معرفة ما للأمم الأخرى من علوم ومعارف لعلهم يجدون فيها الأجوبة الشافية.

كيف بدأ التعريب ؟

تركز كتب التاريخ، على أن التعريب قد ازدهر في بغداد، والخليفة المأمون هو الذي قام بدور عظيم في عملية نقل التراث اليوناني إلى العربية، والواقع أن التعريب بدأ خطواته الأولى في عهد الدولة الأموية، وذلك أن خالد بن يزيد بن معاوية 704م حينما لم يتول الخلافة، اتجه إلى العلم، وهو الذي بدأ بنقل كتب الكيمياء، ثم أخذ التعريب ينمو شيئا فشيئا بطريقة فردية، وفي عهد أبي جعفر المنصور أصبح التعريب محل اهتمام الدولة، فلقد كان لهارون الرشيد أثره الفعال في هذا الميدان إلى أن نضجت فكرة التعريب، أعني نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية وذلك في عهد المأمون ؛ وهنا نتساءل لماذا ازدهرت حركة النقل هذه في عهد المأمون بالخصوص ؟ إن الأمر في نظري يعود إلى أمور ثلاثة :

1. إن المأمون قد اعتنق فكرة الاعتزال، ولكي يؤيد هذه الفكرة بالحجج والقياس استعان بنقل التراث اليوناني إلى العربية.

2. أنه أنشأ دار الحكمة في بغداد، وخصص الأموال اللازمة للذين يريدون أن يتفرغوا لنقل الكتب وترجمتها حتى أنه كان أحيانا يعطي وزن ما يترجم ذهبا وكان يحث الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها[13].

3. إن المأمون في معاركه وانتصاراته على الروم، اشترط في عملية الصلح أن يدفع ملك الروم الكتب مكان المال، وتقول بعض المصادر عن ملوك اليونان "لما انتصرت النصرانية في بلادهم قد جمعوا كتب الحكمة من أيدي الناس وجعلوها

في هيكل قديم وأغلقوا بابه ففتح ملك الروم هذا الهيكل وأرسل خمسة أحمال من كتب الحكمة إلى المأمون بعد أن كان طول الزمان قد أفسد كثيرا من هذه الكتب بالرطوبة"[14]. وهكذا أصبحت بغداد مركزا وملتقى لشتى العلوم الإسلامية والدخيلة. فالتراث الإسلامي الأصيل، انتقل من المدينة المنورة إلى البصرة، ومن البصرة إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى بغداد، أما العلوم الدخيلة، فلقد انتقلت من الإسكندرية إلى انطاكيا ثم إلى بغداد، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى تم تعريب كل ما وصل إلى المسلمين من مختلف الدول والأمم، وهكذا وجد العرب أنفسهم لابد أن ينتقلوا إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلة تمثل تلك العلوم وهضمها واستيعابها بل وتجاوزها إلى مرحلة الإبداع والابتكار ويتجلى هذا باختصار في تلك المناظرات التي كانت تقع بين المسلمين وغيرهم من المسيحيين ومختلف الديانات من جهة أخرى، ومن هنا نشأ علم الكلام، ثم أخذت تظهر مؤلفات فيها طابع الابتكار، والخصوصية والأصالة وهكذا برز الكندي ومؤلفاته الغزيرة (803-873م) ثم الفارابي (870-950م) ثم ابن سينا (980-1037م) والملاحظ هنا، وفي هذه الفترة بالذات أن بغداد لم تبق وحدها مركزا للإشعاع الفكري والحضاري، بل تعددت المراكز، فلقد أصبح تقريبا لكل قطر مركز، وهكذا انتشر التراث اليوناني بعد أن كان محصورا في الإسكندرية، أو مغمورا في الدهاليز، فكانت المناظرات باللغة العربية، والتأليف بالعربية، والقراءة بالعربية فكلّما انتشر الإسلام في بقعة من بقاع الأرض انتشرت معه العربية وكلّما انتشرت العربية انتشرت معها الأفكار اليونانية وفلسفتها.

وما وقع في بلاد العرب والأعاجم وقع في الأندلس ؛ لقد دخل الإسلام بلاد الأندلس على يد الرواد الأوائل، وفي مقدمتهم "طرق بن زياد" وكما أنّ الفلسفة –

والتراث اليوناني بصفة عامة – ازدهرت تدريجيا فإنها أخذت تزدهر تدريجيا كذلك في الأندلس، فلقد بدأت الفلسفة تكتسح الفكر العربي الإسلامي في الأندلس على يد "بن عبد الرحمان" المتوفى سنة (288 هـ – 898 م) ويقول جورجي زيدان "إنّه أول من وصلت إليه كتب الفلسفة، من أمراء الأندلس، واطلع عليها وتظاهر بها إقتداء بالمأمون لقرب عهده منه أما قبله فلم يكن أحد من الخلفاء يعرف الفلسفة"[15]. واستمرت الفلسفة تنمو و تزدهر، حتى ظهرت بعض التآليف لقيمة من طرف الفلاسفة، منهم "ابن طفيل" (1110–1185م) وابن باجة (1052 – 1138 م) وابن رشد (520–595 هـ) (1126–1198 م) وهكذا انتشر التراث اليوناني في هذا الجزء من أوربا أعني الأندلس بعد انتشار الإسلام واللغة العربية يقول ويلز : "فكان العلم يثب على قدميه وثبا في كل موضع وطئه قدم الفاتح العربي، فلم يحل القرن الثامن الميلادي حتى كانت للدولة منظمات (معاهد تعليمية) تنتشر في كل أرجاء العالم المستعرب (لاحظوا معي العالم المستعرب) فإذا وافى التاسع إذا بالعلماء بمدارس قرطبة بالأندلس، يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند وتمثل كل من العقلين العربي واليهودي بعضهما بعضا ومرت فترة تعاون فيها الجنسان الساميان على العمل المتظافر بواسطة اللسان العربي"[16].

والآن لابد أن نتكلم عن المرحلة الثالثة وهي كيف قام المسلمون بتنقية التراث اليوناني وترتيبه وتهذيبه، وكيف وصل إلى أوروبا ؟

تنقية التراث اليوناني

لقد كان الصراع شديدا بين جماعة أهل السنة، وطائفة الفلاسفة، فتارة تكون الغلبة لهذا و تارة لذاك فلقد كان الانتشار للمعتزلة لتغليبهم جانب العقل، وخاصة لما اتخذ المأمون الاعتزال مذهبا رسميا للدولة، وحينما تولى المتوكل

الخلافة (837 م) كان الانتصار لجماعة أهل السنّة، واستمر هذا الصراع إلى أن بلغ ذروته على يد حجة الإسلام الإمام الغزالي (1058 – 1111 م)، لأن أهل الفلسفة قد تغربوا بلغتنا اليوم وهيمنت عليهم العلوم الدخيلة ومن هنا تصدى لهم الغزالي في كتابه الشهير تهافت الفلاسفة يقول في مقدمة الكتاب"ً وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسامي هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم إلى أن يقول : "فلما رأيت هذا العرق من الجماعة نابضا على هؤلاء الأغبياء انتذبت لتحرير هذا الكتاب، ردا على الفلاسفة القدماء، مبينا تهافت عقيدتهم، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالإلهيات"[17].

ولم يكتف الغزالي بهذه الأوصاف الشنيعة بل كفّر الفلاسفة في أمور ثلاثة : "ما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين كالقول في حدث العالم، وصفات الصانع، وبيان حشر الأجساد والأبدان وقد أنكروا جميع ذلك، فهذا الفن ونظائره هو الذي ينبغي أن يظهر فساد مذهبهم فيه دون ما عداه"[18]. لكن الفلسفة لم تستسلم لهذا الهجوم العنيف، فلقد اضطلع ابن رشد للقيام بهذه المهمة أي الرد على الغزالي فألف كتابه الشهير"تهافت التهافت" وصف فيه الغزالي بأنه سفسطائي، جدلي وحجته لا ترقى إلى البرهان، ثمّ يتهمه إما أنه قد فهم هذه الأشياء على حقيقتها فساقها هنا على غير حقيقتها وذلك من فعل الشرار، وإلا أنه لم يفهمها على حقيقتها فتعرض إلى القول فيما لم يحط به علما وذلك من فعل الجهال، ثم بعد ذلك يشرع في تفنيد آراء الغزالي والدفاع عن الفلسفة وتنقية أفكار أرسطو بالخصوص مما علق بها من شوائب سواء كانت أفلاطونية أو من فلسفة الفارابي وابن سينا، فهو يرى أن فلسفة ابن سينا فيما يخص الفيض والإشراق، ونظرية المعرفة، ليست لها علاقة لا من قريب أو بعيد

بفلسفة أرسطو. ونحن نورد هنا مثالا في هذا المقام يقول ابن رشد : "هذا كله تخرص على الفلاسفة من ابن سينا، وأبي نصر الفارابي، وغيرهما، وأما ما حكاه ابن سينا من صدور هذه المبادئ بعضها من بعض فهو شيء لا يعرفه القوم، (يقصد أفلاطون وأرسطو) وإنما الذي عندهم أن لها من هذا المبدإ مقامات معلومة لا يتم لها وجود إلا بذلك المقام منها"[19] ثم يقول في موضع آخر، معترضا على فكرة الفيض : "وهذا كله ليس يلزم قول أرسطو، فإن الفاعل الواحد الذي وجد في الشاهد يصدر عنه فعل واحد، ليس يقال مع الفاعل الأول إلا باشتراك الاسم وذلك أن الفاعل الأول الذي في الغائب، فاعل مطلق، والذي في الشاهد فاعل مقيد، والفاعل المطلق ليس يصدر عنه إلا فعل مطلق. والفعل المطلق ليس يختص بمفعول دون مفعول"[20] إن ابن رشد لم يكتف بهذا بل تصدى لشرح كتب أرسطو شروحا ضافية وهي التي ستحدث أثرا بليغا في حياة الفكر الأوروبي، ولقد كان لابن رشد ثلاثة طرائق : الشرح الأصغر وهو شرح وجيز، ثم الشرح المتوسط، ثم الشرح الكبير، وبهذه الشروح تخلصت فلسفة أرسطو مما نسب إليها من أفكار أفلوطينية محدثة.

والآن و بعد أن تحدثنا عن تنقية ابن رشد لفلسفة أرسطو وترتيبها وشرحها شرحا دقيقا، لابد أن ننتقل إلى الجواب عن سؤال هام، وهو كيف انتقل التراث اليوناني والعربي الإسلامي إلى أوروبا ؟ ففي الوقت الذي كان ابن رشد مشتغلا بالفلسفة، كان الفكر الأوروبي بدأ يستفيق من غفوته، محاولا أن ينفض عن نفسه غبار القرون الوسطى، وظلامها الدامس، ملتمسا أقرب نقطة لتحقيق هذا الهدف الأسمى، وفعلا فلقد كانت نقطة البداية، هي الأندلس، فلقد كانت ملتقى للعلم، والمعرفة، ومثالا للتسامح بين الأجناس والأعراق، وبما

أن المعارف كلها كانت باللغة العربية فكان لابد يومئذ من الإقدام على ترجمتها، وهكذا فإن أوروبا بدأت تترجم التراث اليوناني ابتداء من القرن 12 أي سنة 1130م فلقد كانت هناك مراكز متعددة لهذه الترجمة، نذكر منها على الخصوص صقيلة بليرمو وطليطلة، كما كان هناك مترجمون كثيرون أشهرهم"جون دي سالفي" "و" ميشال سكوت "و" ريموند مارتان "ولقد ذكرت هذه الأسماء على التوالي لأن الترجمة ابتدأت بفلسفة الكندي، والفارابي وابن سينا، أما الخطوة الثانية كانت منصرفة لشروح أرسطو، أما الحلقة الأخيرة فهي الكتب الخاصة بفلسفة ابن رشد.

تقول المصادر التاريخية أن "ريمون ديكاستيل" أكبر أساقفة طليطلة وهو الذي حرص على ترجمة التراث الإسلامي، وكلف أحد المترجمين الكبار وهو "جون دي سافي" وهذا الأخير لم يكن مترجما فقط ولكن كان له اطلاع واسع على القضايا الفلسفية، غير أن هذا التراث الإسلامي الممزوج بالتراث اليوناني الأفلوطيني كانت له ردود عنيفة من طرف الكنيسة لأنه كان في نظرها فلسفة إلحادية تتناقض مع الديانة المسيحية، خاصة منها نظرية الفيض، وقدم العالم، والنفس الكلية ؛ ولهذا تصدى لهل "جون دي فرني"[21] وله مؤلفات في هذا الصدد، ولقد دامت ترجمة هذا التراث من سنة 1130 م إلى سنة 1230م أما ترجمة شروح ابن رشد فابتدأت سنة 1230 م إلى 1256 م ولقد قام بترجمة هذه الشروح كل من "ميشال سكوت" و"هرمان الألماني" ففي هذه الفترة تمت ترجمة جميع شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو، لكن هذه الترجمة أحدثت ضجة كبرى أكثر مما أحدثته فلسفة ابن سينا لأن الأوساط الفكرية والدينية لم تكن تفرق بين فلسفة أرسطو وفلسفة ابن رشد الإسلامية، فاعتقدوا أن كل ما تتضمنه تلك الشروح تعني

بالضرورة آراء ابن رشد ولهذا وصف بالملحد، بل اعتبر رمزا للإلحاد لأنه كان يقول بقدم العالم، وأن الله لا يعرف الجزئيات وينكر خلود النفس البشرية. ولقد تزامن هذا مع نشوء بعض الجامعات في أوروبا، منها جامعة باريس، "السوربون"، و"أكسفورد"، وكان من مظاهر هذا التأثير أن برز تيار عميق هو التيار المسمى بالتيار الرشدي اللاتيني، وكان يتزعمه "سيجر دي برابانت" (1253 -1281 م)[22] وقد كان لهذا الفيلسوف جدال عنيف مع "توما الأكويني" (1225-1274 م) ولقد اضطهدته الكنيسة اضطهادا فظيعا، ولم يقتصر الأمر على ظهور هذه التيارات بل تعدى الأمر إلى ظهور ملوك تبنوا فلسفة ابن رشد الأرسطية، وسعوا سعيا حثيثا إلى نشرها في مختلف أنحاء أوربا، منهم الملك العظيم "فريدريك الثاني" وكان هذا الملك يجيد عدة لغات، وكانت اللغة العربية بالنسبة إليه لغة قومية، وهو الذي أنشأ جامعة "نابولي" وهو الذي استدعى "ميشال سكوت"[23] و"هرمان الألماني"[24]، ولقد غضب عليه قريفريوس التاسع واتهمته الكنيسة بالإلحاد والكفر، وإنه ليمكننا أن نقارنه بالخليفة المأمون العباسي الذي استعان بالفلسفة اليونانية لتقوية حججه، ونصرة فكرة الاعتزال ؛ أما فريديريك الثاني فلقد استعان بفلسفة ابن رشد، وأرسطو والتراث الإسلامي على العموم ليرد به على الكنيسة. والواقع أن هذا الجدال، أو هذا الاصطدام الفلسفي قد ساعد على انتشار الفلسفة اليونانية في أنحاء أوربا. ولقد بقي هذا الاصطدام عنيفا حتى شعرت الكنيسة بالخطر على الداهم إذا لم تبادر بمحاربتها وبالرد عليها، وهكذا اضطلع بهذه المهمة ثلاثة من كبار رجال الدين، وهم "ألبيرت الكبير" (1193-1280م) و"توما الاكويني" و"ريمون دي مارتان" وهذا الأخير كان يتقن العربية إتقانا تاما، عرف القرآن والحديث وكان مطلعا على

الفلاسفة الإسلاميين الذين سبقوا ابن رشد، ولقد تم تعيينه ضمن مجلس كهنوتي، مقره طليطلة سنة 1250م وهو الذي أشار على توما الاكويني بأن ينقلوا إلى اللاتينية مؤلفات ابن رشد الحقيقية وهنا تدخل المعركة بين ابن رشد وتوما الاكويني وطائفة الدومينيكان فصلا جديدا، إذ أنهم ما كادوا يطلعون على فلسفة ابن رشد الخاصة، وأعني بها "تهافت التهافت"، و"فصل المقال"، و"مناهج الأدلة" حتى وقعوا في حيرة من أمرهم وخاصة توما الاكويني فلقد وجدوا في هذه الكتب اتجاها جديدا في فلسفة ابن رشد وهي التوفيق بين الدين (بنظرية إسلامية طبعا) وبين فلسفة أرسطو، وخاصة في المسائل الثلاث أعني قدم العالم، وأن الله لا يعرف الجزئيات، وخلود النفس، ولكن توما الاكويني حرص على أن يقتبس هذه الحلول التوفيقية مع إغفال ذكر اسم ابن رشد أو كتبه الخاصة[25] وهكذا بقي إبن رشد ملحدا في نظر رجال الكنيسة بينما أرسطو تنصر وأصبح مسيحيا ورضيت عنه الكنيسة[26]. بل أصبح الطلاب لا يجازون في الجامعة إلا بمعرفتهم لفلسفة أرسطو[27].

هذا و قبل أن نختم هذا التدخل المتواضع رأيت من المفيد أن أشير إلى حقيقتين هامتين :

1/ لقد زعم "رينان" الفيلسوف الفرنسي الشهير أن الفلسفة العربية ما هي في جوهرها و في مضمونها إلا فلسفة يونانية بأحرف عربية ؛ ولقد ردّ على هذا الزعم جمال الدين الأفغاني (رحمه الله) قائلا : "إن الفرنسيين، والألمان، والإنجليز، لم يتعرفوا على الفلسفة اليونانية إلا عن طريق العرب"، مع أن أثينا كانت اقرب إليهم من بغداد، إلى أن يقول : "لقد أحسن الأوربيون آنذاك

استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ولم يكونوا يفكرون وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم[28].

2/ إذا كان من الثابت تاريخيا أن اللغة العربية اكتسبت الصبغة العالمية بفضل الإسلام والقرآن الكريم واستيعابها للتراث الإنساني الخالد، فإنه لمن الصدق التاريخي أيضا، التأكيد على أن هذا التراث الإنساني لم يخرج من المحلية، إلى العالمية، إلا عبر اللغة العربية ولولا ذلك، لبقي في الأقبية، والدهاليز، عرضة للرطوبة و مرتعا للديدان والحشرات، وتلك هي عظمة العرب في تاريخها المجيد.

قال تعالى : **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** صدق الله العظيم.

المصادر

1. العرب والفلسفة اليونانية، عمر فروخ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت– لبنان .1960

2. تاريخ العلم، سارتون جورج، نشر مؤسسة فراكلين للطباعة والنشر، القاهرة – نيورك، ط 2 ترجمة عدة أساتذة، الجزءان الثالث والرابع.

3. تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم ط 5 مطبق لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1966.

4. تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، يوسف كرم دار المعارف بمصر ط3

5. تاريخ التمدن الإسلامي، جورجي زيدان، ج 3 دار الهلال.

6.تهافت الفلاسفة، الغزالي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت – لبنان، 1927.

7.تهافت التهافت ابـن رشـد، دار المعـارف، ط 1، 1964 تحقيـق، سـليمان دنيا.

8. موجز تاريخ العالم، ويلز جورج هربرت، ترجمة عبـد العزيـز توفيـق، حمـد مأمون، نشر مكتبة النهضة المصرية.

9. نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توما الاكويني، د. محمـود قاسـم، مكتبة الانجلو المصرية.

10. نوابغ الفكر العربي، جمال الدين الأفغاني، عدد 29 محمـود أبـو ريـده، دار المعارف، مصر، 1961م.

الإحالات

1. مـرت الأكاديميـة بعـد مـوت مؤسسـها بـثلاث مراحـل، كـل مرحلـة لهـا خصائصها ومميزاتها، المرحلة الأولى عرفت بعهد الأكاديميات. الأكاديمية الثانية (211–315 ق م). الأكاديمية الثالثـة (191–213 ق م). الأكاديميـة الرابعـة تـولى رئاستها فيلون. لم يذكر التاريخ مدة تسييره لهـا. ثـم الأكاديميـة الخامسـة تـولى إدارتها أنتيخوس الذي مات سنة 68 ق م. المرحلة الثانية تمتاز بالغموض التام وذلك على إثر استيلاء سالا على أثينا سنة 68 ق م. ويقال أن جزء من بنايتهـا تهدم نتيجة لذلك الغزو، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فلقد تعاقب علـى تسـييرها سبعة رؤساء، كان آخرهم "دماسكيوس" ابتـداء مـن سـنة 510م إلى أن أغلقهـا جستيتيان سنة 529م.

2. جـورج سـارتون، تـاريخ العلـم، نشـر مؤسسـة فـرانكلين للطباعـة والنشـر، القاهرة– نيويورك ط2. ترجمة عدة أساتذة عدة أساتذة، ج 3، ص. 15.

3. تداول على الحكم خمسة عشر ملكا، آخرهم الملكة كليوبترا، التي انتحرت سنة 32ق م.

4. سارتون، تاريخ العلم، ج 4، ص. 294.

5. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ط 5 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1966. ص. 244.

6. هربرن جورج ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق، محمد مأمون، نشر مكتبة النهضة المصرية ص. 180.

7. انتقل التعليم منها إلى أنطاكيا، أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز. (717–719م).

8. ويلز جورج، موجز تاريخ العالم، ص. 119.

9. المصدر نفسه، ص. 165.

10. سورة النمل آية 87.

11. سورة الإسراء آية 85.

12. سورة الأعراف آية 53.

13. جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج 3، دار الهلال، ص. 161.

14. عمر فروخ، العرب و الفلسفة اليونانية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت– لبنان 1960، ص. 148.

15. جورجي زيدان ص. 190.

16. ويلز جورج ص. 206.

17. الغزالي، تهافت الفلاسفة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت–لبنان 1927 ص. 39.

18. المصدر نفسه ص. 43.

19. ابن رشد، تهافت التهافت، دار المعارف ط 1، 1964 ص. 304. تحقيق سليمان دنيا.

20. المصدر نفسه ص. 298.

21. له كتابان : خلود النفس، والعالم.

22. كان أستاذا في كلية الفنون في باريس، وكان يعتبر فلسفة أرسطو وشرح ابن رشد أسمى ما وصل إليه العقل البشري، لقد كان يؤمن بأزلية العالم، وكذلك النوع الإنساني وكان يؤمن بالحقيقة المزدوجة، لقد اضطهدته الكنيسة وخاصة توما الاكويني، فطلبته محكمة التفتيش لكنه فرّ ثم حوكم من طرف محكمة روما فسجنته إلى أن توفي مغتالاً سنة 1282م.

23. لقد ترجم ميخائيل سكوت، بعض شروح ابن رشد، مثل كتاب الكون والفساد، الآثار العلوية، القوة الطبيعية، وشرح ما بعد الطبيعة، إلخ.

24. لقد ترجم الشرخ الأوسط لابن رشد على الأخلاق، وكتابه الخطابة والشرح الأوسط، لكتاب أرسطو في الشعر.

25. محمود قاسم نظرية المعرفة عند ابن رشدن مكتبة الانجلو المصرية ص. 76.

26. كان ذلك في سنة 1366م، ولمزيد من التفاصيل يستحسن الرجوع إلى كتاب يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ص. 115.

27. يقول ويلز وهكذا حدث أن التجمع والنقد المنظم للحقائق الذي بداه الإغريق لأول مرة، عاد سيرته الأولى، في ثنايا تلك النهضة المدهشة، التي نهضها العالم السامي. فالآن دبت الحياة في بذرتي أرسطو ومتحف الإسكندرية، اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذ في الإثمار". موجز تاريخ العالم ص. 208.

28. محمود أبو ريه نوابغ الفكر العربي، جمال الدين الأفغاني عدد 29 ص. 42 دار المعارف بمصر 1961م.